سـور الليل

ناطق خلوصي*

يشيرُ عليه الآخرُ الذي إلى جانبه أنْ يَرْكن السيارةَ في منعطف قريب، فيستجيب. يدير عجلةَ القيادة، ويَدْخل ذلك المنعطف، وما يلبث أنْ يضغط على الكابح، ويطفئ المحرّك. ينحني بنصف جسده العلويّ على المقعد الخلفيّ ويلتقط العلبةَ وينزل، ويكون الآخر قد سبقه إلى النزول، وها هما يسيران تحت سماء رماديّة تظلّل صفحةَ مساءٍ خريفيّ موحش. يتوقّف الآخر، فيتوقّف هو أيضًا، وقد صارا أمام بابٍ تعلو عتبتُه شبرًا عن رصيف الشارع. يقف وهو في حالة يقظة حسيّة، ويراقب كلَّ شيء من حوله. لقد ارتضى أن يقوم بهذه المغامرة، بل سعى إليها في الواقع، من أجل أنْ يخترق عالمًا يختبئ وراء سور اللّيل. والآن يسمع خشخشةَ سلسلةِ مفاتيح تتأرجَّح بين أصابع يد الآخر اليمنى، ويرى اليسرى ترتفع إلى زرّ جرس الباب ويضغط إبهامها عليه مرّةً، ثم يعاود الضغطَ مرّةً أخرى، فيصير في اعتقاده أنَّ هذا الذي مازال غريبًا عنه إنَّما فَعَلَ ذلك لكي ينبئ مَنْ في الداخل أنَّه قادم ومعه ضيفٌ واحد. وما يلبث أن يدسّ مفتاحًا في ثقب القفل ويديره فيُسمع صوتُ ارتداد المزلاج مثلَ أنَّة خافتة. وخلل شفتَيْن مرتبكتَيْن يتسرَّب صوتٌ محايدٌ يتزامن مع حركة ارتداد ضلفة الباب:

ـ تفضّلْ!

هما الآن في مدخل فسحة ضيّقة بدتْ مثل ممرّ يُفضي إلى فوهة قبر. يردُّ الآخر ضلفةَ الباب ويُحْكم الرتاج، ويبدأان صعودًا متأنّيًا، فيشعر الآخر وهو يفعل ذلك، مثلما يحدث في كل مرّة، أنَّه يهبط إلى الحضيض.

يوشكان أن يصلا نهاية السلّم، فيُسمَع تلك اللَّحظةَ حفيفٌ خافتٌ، وما تلبث أن تَبينَ قامةُ صبيّ صغير يركض صوب الآخر ويلوذ بساقه ويتشبّث بها، فيربّت هذا على رأسه ويقوده معه. يمكث الزائرُ واقفًا هنيهةً وهو يتطلّع حوله بتفحُّصٍ حذر: صالةٌ تسبح في ضوء يُغبش البصر، وقطعُ أثاث قديمةٌ لكنَّها تبدو كأنَّها لم تُستعمل كثيرًا. ثمّة أريكة مزدوجة في عمق الصالة، وثلاثةُ مقاعد تتوزَّع في مربَّع يلتمّ على نفسه وتشكّل الأريكةُ المزدوجةُ ضلعَه الرابعة. وعلى مناضد صغيرة واطئة ثمّة نفّاضاتُ سجائر زجاجيّة.

يومئ الآخر إلى الزائر برأسه صوب الأريكة، ويظلّ هو واقفًا هنيهةً قبل أنْ يَهْبط بجسده على أحد المقاعد، ومايزال الصبيّ الصغير لائذًا به. يفرد ساقَيْه تحت إلحاح حركة يد الصبيّ، فيَحْشر هذا جسدَه النحيفَ في الفسحة التي بينهما، لكنَّه لم يَقْنع إذْ لم تهدأ حركتُه: فها هو يَرْفع جسدَه قليلاً قليلاً، ويُفْلح أخيرًا في وضع مؤخّرته على فخذ أبيه ويستقرّ بها هناك.

خلف الأريكة، التي يستقرّ عليها الزائر الآن، بابٌ موصدٌ، وبابٌ مواربٌ قبالةَ الآخر. وثمّة ممرّ يفضي إلى مَرافق الشقّة الأخرى. تتدلّى ساعة معطّلة على جدار الصالة الذي وراء الأريكة.

يمدّ الزائر يده ويلتقط العلبة من المنضدة الصغيرة الواطئة التي كان قد وضعها عليها لحظةَ دخوله. يشير إلى الصبيّ فيشرئبّ بصرُ هذا مختلجًا، ويسيل لعابُه، ويكاد يقفز مغادرًا فخذَ أبيه. لكنّ الأب يَكْبح هذه الرغبة بحركةٍ من يده ويشير إلى الزائر أن يتريَّث بعض الشيء. يقتنص بصرُ الزائر عينَي الصبيّ وهما تتفرّسان فيه وكأنَّه كائنٌ غريب، ويلتقط سمعُه الصوتَ الذي يتهادى ببراءةٍ عذراء:

ـ مَنْ هذا يا أبي؟!

فيردّ الآخر بصوت مكتوم:

ـ إنَّه عمُّك.

تتّسع حدقتا عيني الصبيّ وهو ينظر إلى أبيه:

ـ عمي؟! ولماذا لم يزرنا من قبل؟

يتهدّج صوتُ الآخر:

---

* ـ كاتب من العراق.

ـ كان مشغولاً.

ـ وأين يسكن؟

ـ في مدينة بعيدة.

يصفّق الصبيّ يدَيْه الصغيرتَيْن بمزيج من الدهشة والفرح:

ـ ياه! لقد أصبح لديّ أعمامٌ كثيرون.

يبتلع الآخر كلمات الصبيّ القاطعة وكأنَّه يبتلع شفرةً. يخفض رأسَه حتى يصير فمُه جوارَ أُذن الصبيّ فيهمس له:

ـ اذهبْ وتفرَّجْ على التلفزيون. قد تأتي أمُّك وتغضب منك.

يهبط الصبيّ عن فخذ أبيه على مضض ويسير مطأطِئًا رأسَه، يتّجه صوب الغرفة التي يقع بابُها قبالةَ أبيه تمامًا. يدخل، ويصفق البابَ بحركة تُجْفل أباه والزائرَ معًا.

الزائر يراقب الآخر من طرف خفيّ. يرى وجهه يتلوّن ثم يَشْحب. يراه يمدّ يدًا مرتبكة ويستلّ منديلاً من جيبه ويمسح العرقَ عن وجهه وهو ينقّل بصرًا قلقًا بين باب الغرفة التي اختفى فيها الصبيُّ وبابِ الغرفة التي وراء الأريكة. فجأةً ينهض ويقترب من الزائر خطوةً، يفرد إصبعين من يده اليسرى ويَبْسط يَده اليمنى، ثم يقول وهو يحرّك إصبعيه المفرودتَيْن:

ـ تَلْزمنا زجاجتا بيرة.

يسود صمتٌ قلقٌ هنيهةً، ما يلبث أن يَكْسره صوتٌ رقيق قادمٌ من الغرفة التي وراء الأريكة.

ـ اجعلْها ثلاثًا!

لحظتئذٍ يطمئنّ قلبُ الزائر ويزايله الشكُّ الذي كان قد ساوره في البدء: الشكُّ من احتمال أن يكون قد وقع في فخٍّ مهلك. يمدّ يده إلى جيب سترته الداخليّ ويستلّ رزمةَ أوراقٍ نقديَّة يناولها إلى هذا الواقف ذليلاً أمامه، دون أن يكلّف نفسه عناء عدِّها. يتلقف الآخر رزمةَ النقود على عجل، وما يلبث أنْ يلهوج:

ـ يَلْزمنا عشاءٌ أيضًا.

فيردّ الزائر وكأنَّه يحسم الأمر:

ـ معك من النقود ما يكفي لأكثر من هذا!

يقلّب الآخر رزمة النقود وكأنَّه يزنها. يقول وهو يكاد يهمس:

ـ فعلاً.. فيها ما يكفي.

على حين غرّة، يُسْمع صريرُ باب الغرفة التي وراء الأريكة وهو يُفتح، فيتسرّب شذا عطرٍ فاغم يبدأ بالانتشار في فضاء الصالة، وقد تسمّر بصرُ الآخر في ذلك الاتجاه. يقترب حسيسُ قدمَيْن، فيزداد شذا العطر اقترابًا. يلتفت الزائر إلى حيث يأتي شذا العطر الذي يفغم أنفَه، والوقعُ الذي يمسُّ سمعَه مسّاً رقيقًا، فيَسقط بصرُه على وجهٍ صبوح يتوّجه شعرٌ بنيّ فاتح مصفوفٌ بعناية، وجسدٌ ممتلئٌ بعض الشيء لا يَسْتره تمامًا ثوبٌ يشي بمفاتنه، وصدرٌ تزيّنه رمّانتان تكاد حلمتاهما تشقّان قماشَ الثوب. يتأمّل الزائر، مبهورًا، هذه القادمةَ الفاتنة التي بدتْ له وكأنَّها انتهت من وضع آخرِ لمسةٍ مكياج، وقد وقفتْ قريبًا منه. يقف هو أيضًا دون أنْ يغادره انبهارُه. يلتفت إلى الآخر فيراه يضع على وجهه ابتسامةً ذليلَة، ويسمعه ينتزع صوتَه من حنجرة محشرجة:

- زوجتي!

يمدّ الزائر يده فتتلقف المرأة كفّه بكفٍّ ليّنة، وتَضْغط عليها قليلاً، فيبتسم. ثمّ ينتبه إلى أنَّها تحوّل بصرَها إلى الآخر وتبتسم، وكأنَّها تريد أنْ تُفصح له بأنَّه أحسنَ الاختيارَ.

تستدير وتجلس على طرف الأريكة، ويجلس الزائرُ على طرفها الآخر لكنَّه يشعر تلك اللحظةَ كأنَّ المسافة التي تَفْصل بينهما تتلاشى شيئًا فشيئًا. يظلّ الآخر واقفًا لكأنَّه ينتظر إيعازًا، وما يلبث أنْ يومئ إلى الزائر أَنْ آنَ موعدُ تقديم العلبة، فيمدّ هذا يديْه ويرفع العلبةَ من مكانها على المنضدة الصغيرة الواطئة القريبة منه، ويقدّمها إلى المرأة، التي تتناولها بعد تمنُّعٍ مصطنعٍ قصير، وتقول بما يقترب من الهمس:

ـ لماذا كلّفتَ نفسك؟

وقبل أنْ تتلقّى ردَّه، تبدأ بفضّ غلاف العلبة الورقيّ. ترفع الغطاء، تلتقط قطعة حلوى، تضع طرفها بين لؤلؤ أسنانها وتقضمها وتتمتم:

ـ لذيذة!

ترتسم على وجه الآخر ابتسامةٌ بلهاء وهو يراها تنهض من مكانها وتنتقل إلى المقعد الذي يقف قريبًا منه، وتنادي بصوتٍ له رنينٌ غنج:

ـ فائد!

يصرُّ بابٌ، ويأتي الصبيّ على عجل. وحين يصير قريبًا منها تناوله قطعةَ حلوى، فيلتقطها بأصابع لهفته ويتّجه صوب أبيه، لكنَّه يفزّ على صوتها ينهره:

ـ ارجعْ إلى الغرفة.

فيفعل طائعًا وقد بدا كأنَّ خيطَ أسًى ينسلُّ من داخله وينسرح على وجهه. وما تلبث أنْ تنادي من جديد، فيسمع الزائرُ أسماءَ «فادية»، «منار»، «شهلاء»، ويرى ثلاثَ زهرات يخرجن على استحياء، يقفن أمامها بخنوعٍ، ثم يتناولن قطعَ الحلوى منها ويرجعن إلى الغرفة بهدوء، ويلمحهنّ وهنَّ يُحْرجنه بنظرات غامضة من زوايا عيونهنّ. ولعلّ أبصارهنّ كانت تتساءل عن هذا العمّ الذي لم يرينه من قبل.

ينحني الآخر ويمدّ يده كأنَّه يهمُّ بأن يلتقط قطعة حلوى من العلبة. ولكنَّ صوتها يقمع حركة يده:

ـ ليس الآن.. عندما ترجع تأخذ حصّتك.

فيستقيم وهو يحاول أن يداري ارتباكه بابتسامة. يرنُّ صوتُها أمرًا:

ـ اِذهب الآن ولا تتأخَّرْ.

فيستدير طائعًا ويخطو صوب السلّم وهو يغمغم:

ـ لن أتأخَّر.

ويَشعر وهو يهبط السلّم أنَّه ينحدر صوب هوّة عميقة. ويساور الزائرَ الشكُّ في أن يكون الآخرُ هو زوجَ المرأة التي تجلس إلى جواره الآن، وقد بدأتْ تقترب بجسدها منه، فيشمّ رائحةَ شبقٍ لا يدري إنْ كان حقيقيّاً أو لا.

تساوره خشيةُ أن تكون هذه المرأة نمرةً شرسةً عصيَّةً على الترويض. فلقد رآها تَبْسط سطوةً صارمة ومستبدّة على مَنْ هم في معيّتها: زوجها وابنها وبناتها الثلاث. أَوَتستطيع أنْ تفعل ذلك معه وهو زائر عابر لا تعرف مجرَّد اسمه، لم يأتها محكومًا بنزوةٍ طائشة، وإنَّما بهاجسٍ يتلبّسه منذ زمن؟ يراها تنهض وتتشاغل بما هو تافه أو صغير، غير أنَّها تفعل ذلك بحنكة امرأة متمرِّسة في

أداء دورها. تلتقط منفضة فارغة وتأتي بها، وتتعمّد أن تنحني لتضع المنفضةَ أمامه فتَكْشف عن مرمر صدرها والأخدودِ العميق الذي ينخسف بين ثدييْها، ثم تستدير وتخطو خطوتيْن وتنحني كأنَّها تلتقط عود ثقابٍ من على الأرض، فتتكوّر مؤخّرتُها وتَبين سمّانتا ساقَيْها الممتلئتَيْن، فيدرك أنَّها تفعل ذلك لتثير عصبَ الشبق الذي لم يستيقظ عنده بعد. ثم لا تلبث أن تعود وتهبط على الأريكة إلى جانبه، ويحسّ بها تقترب منه حتى تلامس فخذُها فخذَه وتميل برأسها إلى كتفه. تراه ينظر إلى ساعته فتهمس:

ـ هل أنتَ على عجلة من أمرك؟

يفاجأ بسؤالها. كيف يكون على عجلة من أمره؟ إنَّه لن يفعل شيئًا وزوجُها غائب. ما يهمّه أنْ يتوغّل في دخيلةِ نفسِ ذلك الذي يستمرئ أن تشرِّع زوجتُه أبوابَها لرياح غريبة. يردّ وهو يفتعل عذرًا:

ـ نظرتُ إلى ساعتكم فظننتُ أنَّ ساعتي تعاني خللاً ما!

ـ ساعتنا عاطلة. الزمن معطّل بالنسبة إلينا.

وتلتمّ في شرنقة صمتها لحظةً وما تلبث أن تخرج منها:

ـ ظننتكَ على عجلة من أمرك!

فيردّ على عجل:

ـ لا أبدًا.. لننتظر عودةَ...

يسكت وهو يومئ بأصبعه إلى الأسفل، وكأنَّه يعني زوجها. يراها ترفع رأسها عن كتفه وتغمغم بشيء من عدم الرضا:

ـ زوجي. ولي أربعةُ أطفال منه هم الذين رأيتَهم قبل قليل. أم أنَّك تشكّ في ذلك؟

فيردّ مرتبكًا:

ـ بل أصدّقكِ.

يحاول أن يداري ارتباكَه، فيستلّ علبةَ سجائره ويلتقط سيجارةً يقدّمها لها فتتناولها دون تردُّد، ويلتقط واحدةً لنفسه، ويشعل عود ثقاب يقرّبه من رأس سيجارتها وسرعان ما تتوهّج جمرةُ الرأس، وما يلبث دخانُ السيجارتَيْن أن يتصاعد في فضاء الصالة.

يَكْسر حاجزَ الصمت الذي كان قد ارتفع بينهما منذ قليل:

ـ ليساعدْكم اللَّهُ في هذا الزمن الصعب.

فيشعر كأنَّ كلماته استفزّت وترًا في داخلها. يسمعها ونبرةُ احتجاجٍ تشوب صوتَها:

ـ ليساعدْني اللَّهُ أنا.. إنَّني أتحمّل العبء وحدي.

ـ وهو؟

ـ هو؟!

وتصمت لحظةً ثم تزفر بعمق وتقول كأنَّها لا تخاطب أحدًا أمامها:

ـ إنَّه عاطلٌ ومعطوب.

يحيّره ما يَسْمع، ويَهْمس لنفسه: كم هي قاسية معاناتُها إذنْ! إنَّها تبوح له بما يتأجّج في صدرها من ألم، وكأنَّها تعرفه منذ زمن بعيد. يصمت وقد تلبّسه الوجومُ وهو يفكّر. ليس غريبًا أن يكون رجلٌ مثلُ زوجها عاطلاً، أمَّا أنْ يكون معطوبًا فهو ما يدعو إلى التساؤل.

يتوجّس خيفةً من أن يكون قد نكأ جرحًا عميقًا في روحها، وقد أخذ يحسّ بها تتململ. يسمعها تقول:

ـ إنْ كنتَ راغبًا فأنا على أتمّ الاستعداد.

يردّ متودِّدًا وهو يقترب منها أكثر:

ـ مازال لدينا متَّسع من الوقت.

يسمعها تقول بأسًى وهي تلقي رأسَها على صدره:

ـ لا تُشغلْ نفسَكَ، إذنْ، بما قد يُفْسد الأمسيةَ عليك!

يهزّ رأسه موافقًا وهو في حالة استسلامٍ لرغبتها، كاتمًا آنيّاً الرغبةَ التي تمور في داخله: في أن يرفع الغطاءَ عن عالمِ ما وراء سور الليل.

يأتي صوتُ اصطفاق الباب، ودربكة قدميْن على السلّم. يحسّ بها تنتزع جسدها بعيدًا عنه. يسمعها تقول وهي تومئ برأسها:

ـ ها قد عاد.

يظهر في مدخل الصالة، وقد تدلّى كيسان من يديه. تنهض وقد اصطدم بصرُها ببصر زوجها، وتبدو كأنَّها التقطتْ إشارةً متسائلةً من عينيه، فتهزّ رأسَها برفق وكأنَّها تقول له إنَّهما لم يفعلا شيئًا. تسير عبر الممرّ الضيّق وتغيب هنيهةً وما تلبث أن تعود بثلاثة أقداح، تناوله واحدًا، وتمضي بالاثنين الآخرين إلى حيث يجلس الزائر. تضع القدحيْن على المنضدة الصغيرة الواطئة التي أمامه. ينحني زوجها على أحد الكيسين اللذَيْن كان قد وضعهما على الأرض، يلتقط دجاجتَيْن منه، ويأتي بهما إلى حيث تجلس على طرف الأريكة ويجلس الزائر على طرفها الآخر، ويضعهما بحركة إنسانٍ آليّ. وتسمعه يهمس للزائر:

ـ اطمأننتُ على سيارتكَ في طريق عودتي.

فتدرك أنَّه يريد أن ينبِّهها إلى الصيد الدسم الذي أمامها.

يعود إلى مكانه وقد التقط كلمة شكر الزائر. يقف لحظةً قبل أن يستدير وكأنَّه تذكّر أمرًا على حين غرّة. يقول ملتمسًا العذرَ عن خطإٍ لم يرتكبه:

ـ نسيتُ أنْ آتي بمفتاح القناني.

يغيب قليلاً ويعود ناشرًا على وجهه ابتسامته البلهاء. ينحني، يفتح زجاجةَ البيرة التي أمام الزائر والأخرى التي أمام زوجته، ويتراجع إلى حيث تنتظره زجاجته ويفتحها ويجلس. ينقّل الزائرُ طرفًا خفيّاً بين الوجهين، فينتبه إلى أنَّ المرأة التي إلى جواره تتصرَّف بهدوء وكأنَّها تمارس طقسًا عائليّاً مألوفًا، وقد رفعتْ زجاجةَ البيرة بيد والقدحَ بيد. تقرّب يدها التي تحمل زجاجة البيرة من اليد التي تحمل القدح. تضع حافة فوهة الزجاجة لصقَ حافة فوهة القدح، فيبدأ السائل الرائق ينسكب مثيرًا وشوشةً خافتةً ورغوةً تطفو على السطح. تنظر إلى الزائر من زاوية عينها وكأنَّها تحرّضه على أنْ يفعل مثلما فعلتْ، فيستجيب وهو يبتسم في وجهها، وما يلبث أنْ يستدير ببصره صوب الآخر فيراه قد وضع فوهة الزجاجة في فمه وبدأ يعبّ البيرة بحركة منفعلة ومايزال القدحُ الفارغُ ساكنًا أمامه.

تسأل المرأة وهي تمسح طرفَ فمها:

ـ ما الذي أتيتَ به من عشاء؟

يردّ وكأنَّه لم يتذوّقْ طعامًا منذ عام:

ـ دجاج مشويّ!

تتمتم وهي تشيح ببصرها عنه:

ـ حسنًا فعلتَ.

وتخاطب الزائر هذه المرّة:

ـ ألست جائعًا؟

يردّ على عجل:

ـ ليس بعد! وأنتِ؟

فتقول بغنج:

ـ ليس قبل أن أنتهي من خدمة ضيفي.

وتُطْلق ضحكة سمجة كأنَّها تريد أن تغيظ زوجَها بها.

يرى الزائر خدَّي المرأة وقد توهّجا بحمرةٍ قانية، وشعشع الضوءُ في عينيها، وصارت تنوس برأسها وكأنَّها بدأتْ تشعر بالنعاس. انتهى زوجها من زجاجته، ويبدو الآن كأنَّه ينتظر إيعازًا منها. ولم يَطُل انتظارُه، فها هي تنظر إليه بعينَيْن نصفِ مغمضتَيْن وقد بدأ رأسُها يتمايل:

ـ خذْ نصفَ ما أتيتَ به من عشاء، واذهبْ به إلى الأطفال!

يردّ وهو يداري خجله:

ـ لقد كنتُ أوشك أنْ أفعل ذلك. ثمّة برنامج ممتع في التلفزيون!

وينهمك باقتسام ما جاء به من عشاء، والزائرُ يراقبه بطرف خفيّ وقد أوشك رأسُ المرأة أنْ يرتمي على كتفه. ينهض حاملاً معه نصفَ ما جاء به، ويسير مطأطئًا الرأسَ. يدخل الغرفة المقابل له ويردّ بابَها من ورائه.

تمدّ المرأة يدها وتلتقط يد الزائر، وتنهض، فينهض. تسير به إلى الغرفة التي في عمق الصالة، فيجد نفسه في عشٍّ للزوجيّة: سرير مزدوج، وخزانة ملابس، ومرآة زينة. ينتبه إلى أنَّ ثمّة ساعةً تتدلّى من الجدار، لكنّ عقربيْها ساكنان. ينظر إلى وجه المرأة مبتسمًا فيسمعها تقول:

ـ ألم أقلّ لك إنَّ الزمن معطّل بالنسبة إلينا؟

ولا يبلغ صوتُها سمعَ زوجها الضائع وسط شغبِ الصبيّ وضحكاتِ الصغيراتِ وضجيج التلفزيون، وقد شعر بصداع خفيف يتلبّس رأسه. يُسْند كوعَه على ذراع الكرسيّ ويُنزل خدَّه على راحة يده، وهو لا يدري بم يردّ على أسئلة الصبيّ عن عمّه الجديد: أغادَرَ، أم أنَّه مايزال جالسًا مع أمّه؟ وهل سيعاود زيارته؟ يمدّ عينَ خياله إلى ما وراء الباب الموصد: ترى هل تعرّت الآن؟ وأيّ قميص داخليّ ترتدي؟ لكنَّها لم تتعرَّ بعد، إنَّما تمكث واجمة حين ترى الزائر مايزال متسمّرًا وسط الغرفة منقّلاً بصرًا متطفّلاً، متفحّصًا في أرجائها، ليستقرّ به أخيرًا على صورة مزجّجة ومؤطّرة: صورة زوجها، بشارب أسود كثّ، وهو في بذلة داكنة يحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة. ويخيّل إليه أنَّه يرى ثلاثَ صور لا صورةً واحدة: صورةَ حارسٍ متعب في قرية مستباحة، وصورةَ صيّادٍ خائب عائد من رحلة صيد فاشلة، وصورةَ محاربٍ مهزوم خارج من معركة خاسرة. يقترب من الصورة ويحملق فيها، فيأتيه صوتُها كئيبًا منكسرًا:

ـ صورتُه قبل سنوات.

يدير وجهًا متسائلاً إليها:

ـ هل تعنين أنَّه....

وقبل أنْ يُكمل ما يريد أنْ يقول، يَقْمع صوتُها صوتَه:

ـ كان ذلك منذ زمن. أصبح في عداد الماضي الآن.

ثم تَزْفر بعمق وتنظر إليه وكأنَّها تعاتبه أو تلومه:

ـ لماذا تُشْغل نفسَك بأمرٍ تافهٍ مثلِ هذا؟

يرنّ في أذنه صوتُها وهي تقول حين كانا وحدهما في الصالة: «إنَّه عاطل ومعطوب،» فيحاول أن يمدّ خيطَ صلةٍ يربط الصورةَ بما كان قد سمعه منها. ولكنَّه يراها تنضو عنها ثوبَها وتَهْرب ببصرها عنه. ترمي الثوب جانبًا وتظلّ محتفظةً بقميصها الداخليّ، فتنكشف أمامه تفاصيلُ جسدٍ لدنٍ شهيّ، ويجد نفسَه يمدّ يدًا ويَفْتح أزرارَ قميصه ويأتي ليجلس على السرير، وقد سبقتْه إلى ذلك. ترى ظلالَ وجومٍ ترين في عينيه. تنظر إليه وكأنَّها تريد أن تستجلي الكامنَ في رأسه من أفكار، وتقول:

ـ لكأنَّكَ جئتَ لغايةٍ أخرى!

يُفاجأ بما يسمع، فيتمتم مرتبكًا:

ـ لا.. أبدًا.

ينضو قميصَه عنه. تستلقي وسط السرير تمامًا تحت الصورة الأخرى التي تجمعها بزوجها وهي في بذلة الزفاف. يلتفت إلى الصورة التي يبدو فيها زوجُها وهو يَحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة، فيخيّل إليه أنَّ تلك الماسورة مصوّبةٌ نحوه، وينتبه إلى يدها وهي تمسك بذقنه وتدير رأسه إليها وهي تغمغم:

ـ إنَّها مجرّد صورة قديمة، وبندقية باردة. ربما كانت خاليةً من الرصاص عندما التُقِطت الصورة.

فتزيده كلماتُها إحساسًا بالحيرة، ويجد نفسَه إزاء لغز غامض. وخشيةَ أن تستفزّها لجاجتُه فَتُقْفِلَ فمَها تمامًا، ينشغل عن الصورة وعن البندقية وحاملها، وما يلبث أن يستبدّ به اللهاث.

حين ينهض يسمعها تقول وكأنَّها تُفْصح عن أمنية تتأجَّج في داخلها:

ـ هل ستزورنا مرّةً ثانية؟

يردّ وهو يلتقط قميصه:

ـ بالتأكيد. كيف لا أفعل ذلك وقد وقعتُ على جوهرة نادرة؟!

فتشعر بتيّار من الزهو يسري في روحها. وإذ أخذتْ تلملم نفسَها وتنهض من السرير فاجأها صوتُه:

ـ في رأسي سؤال يبحث عن جواب.

يجفلها ما تسمع:

ـ أيّ سؤال؟

يَنْشر على وجهه ابتسامةً متفائلة وقد وضع يدَيْه على كتفيْها وصار بصرُه يُبْحر في عينيها. وتسمعه يقول وهو يشير إلى الصورتَيْن المعلّقتَيْن على جدارَيْن في الغرفة:

ـ الآن أيقنتُ تمامًا أنَّه زوجك. سبق أنْ قلتِ إنَّه عاطل ومعطوب. وليس غريبًا أن يكون عاطلاً، لكنْ لا أفهم ما تعنين بقولك إنَّه معطوب!

تسأل وهي تخفض بصرها:

ـ أيهمُّك أن تعرف؟

ـ ربَّما!

ـ ما الذي يدعوك إلى ذلك؟

ـ لعلّه الفضول.

ـ ألم تقل إنَّك ستزورُنا مرّةً أخرى؟

ـ وأقول ذلك الآن أيضًا.

ـ ربّما ستعرف ما أعنيه في المرّة القادمة.

ويعاجلها صوتُه قبل أن تنفلت خارجةً، وهو يشير إلى الصورة التي يَظْهر فيها الآخرُ في بذلة داكنة وهو يحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة:

ـ فقط أريد أن أعرف، ألهذه الصورة علاقةٌ بما تعنين؟

تهزّ رأسها إيجابًا، فيلاحقها صوتُه وهي توشك أن تجتاز العتبة:

ـ لمن أَدْفع؟

تردّ دون أنْ تلتفت:

ـ لي، أو له، لا فرق. ولكنْ من الأفضل أن تدفع له؛ إنَّه رجل البيت!

ويشعر كأنَّها تقول عبارتها الأخيرة مثقلةً بمرارة السخريَّة، وتنسحب ليستكمل هو ارتداءَ ثيابه.

حين يخرج يراها تجلس على الأريكة في انتظاره. يجلس إلى جوارها ويَسْمعها تهمس:

ـ لقد بذلتَ جهدًا. ألا تتناول عشاءك؟

يردّ وأصابعُه تلامس خدَّها ملاطفًا:

ـ لا أريد أن أُفْسد نشوتي بالطعام.

تبتسم وهي تنهض ويسمعها تهمس من جديد:

ـ حسنًا، إذن!

يراها تتّجه إلى الغرفة الأخرى. يسمعها تَنْقر بابها، فيدرك أنَّها تنبِّه زوجها إلى أنَّ الطقس الليليّ قد تمّ. تعود إلى الأريكة. وما إنْ تستقرّ بجسدها هناك حتى ينفتح بابُ الغرفة تلك. يخرج الآخر، ويردّ من ورائه البابَ، ثم يتقدّم من الزائر، ويمدّ يده مصافحًا. ينهض الزائر ويمدّ يده في جيبه، فيضع الآخر يده تحت ذراعه ويسير به صوب السلّم. فيصير في يقين الزائر أنّ هذا الذين يَهْبط السلّم معه، وكأنَّه ينزل إلى الحضيض، معطوبٌ حقّاً: لعلّ عطبه يكمن في مكانٍ ما من جسده، أو لعلّه يكمن في رأسه أو روحه. وحين يدسّ رزمةَ النقود في يده، يراه يضمّ راحتَه عليها وكأنَّه يريد أن يعتصرها. وتحت مسقط الضوء الشاحب يرى وجهَه يَشْحب ثم يغيم، ويسقط رأسُه على صدره.

بغداد